

## لفصل الثاني

### ﴿ الاسلام في زمن الفتح ومدة حكم العرب ﴾

استعلاء بلاد العرب على الاسلام — القديس ( اوغستان )  
 ومعاينة أهل البدع — انتشار الاسلام وملاينته في الشرق —  
 اعتناق الاسلام بمصر في زمن بني امية — الاسلام في  
 الاندلس — اضطهاد قرطبة — تعذيب ( فلورا )  
 العذراء — المضطهدون في مرا كس — نتائج  
 ملاينة الدين الاسلامي

قال القديس ( بولص ) يطلب اليهود معجزات ليصدقوا واليونان ادلة  
 ليؤمنوا وأما العرب فانهم آمنوا بغير معجزات ولا أدلة اذ النبي كان يقول  
 جلسائه علي الدوام انه آدمي مثلهم وانه مرسل اليهم وانه مجرد عن كل  
 سلطان في المعجزات ( قل انما انا بشر مثلكم يوحى الي انما الحكم اله واحد )  
 ( قل لا املك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ولو كنت اعلم الغيب  
 لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ان انا الانذير وبشير لقوم يؤمنون )  
 وأما البراهين فنحن نعلم مقدار بعد عقله عن التخيلات الذهنية  
 كالامة التي بعث فيها الا اننا رأينا الاسلام في وقعة بدر سنة ٦٢٤ ميلادية  
 وليس له من الانصار الا ثلثمائة واربعة عشر نفراً فلم يمض عليه قرن واحد

حتى اجتاز جبال ( الألب ) وتوسط البلاد الفرنسية وقد اسلمت الشام  
والعجم ومصر وبلاد الغرب من مرا كش الى الجزائر الى تونس الى  
طرابلس . نعم قد سبق هذا الانتشار العظيم عناء شديد واضطراب في العمل  
كثير واضطهاد للناس كبير شأن كل ديانة عامة في مبدأ ظهورها ولكن  
الاسلام لم يلبث ان تغلب على اكبر العثرات فهد الصماب حتى صار لا يعرف  
حاجزاً ولا ممانعاً

وما أشبه الدين في انتشاره بامتداد السائلات، الطبيعية فهو نتيجة  
مؤثرين مؤثر داخلي يسمى المقاوم ومؤثر خارجي وهو المحرك والاول خفي  
لا يظهر اثره وان كان هو الذي يلتقط جميع الحرارة الواصلة الى الجسم فعمله  
الوحيد التغلب على مقاومة العناصر فاذا انحلت جاء المؤثر الخارجي فنشأ  
عنه مع اختلاف يسير تمدد الجسم العظيم الذي يسمى تبخراً وقد احتاج  
الاسلام في الانتشار الى التغلب على قوة العوائد والتقاليد التي وجدها وهو  
مانع يصادف كل دين جديد الا انه كان قوياً للغاية عند العرب لتمسكهم  
بماداتهم واعجابهم برسوم قبائلهم العريقة القديمة وكان من الصعب جداً  
ان يعتقدوا دينا يرى اباؤهم غير مطهرين ومن الموانع التي قوت العرب في  
استمعصامهم على الاسلام ما شتمل عليه من عباد قهر النفوس وتذليلها للواحد  
المعبود فالقول بالمساواة بين الناس طراً امامه كان ثقيلاً على آذان العرب  
مخالفاً لتقاليدهم الاولى حتى يدينوا اليه بغير عناء ولذلك فان الاسلام سنة  
٦٣٢ ميلادية ايام وفاة النبي لم يكد يبلغ حدود جزيرة العرب الا انه كان  
بين المسلمين الاولين رجال من العظماء اعترف بفضلهم الالب ( بروغلي )

حيث قال ( ان الذين آمنوا بمحمد كانوا قوما صادقين ذوى دراية وذكاء منهم ابوبكر وعمر رجلا ن تولىا زمام مملكة فسيحة الارجا، فاحسنا سياستها وكانا ذوى ثبات وعدل وقناعة وفضل وشدة عزيمة وكانا ارفع قدراً وابعد مرى من القياصرة والحكام الذين حاربوها ) ومن الغريب ان الدين الاسلامى لم يلق فى طريقه من المقاومات الاما قابله بها العرب الوثنيون فانهم كما قدمنا كانوا مدفوعين الى المقاومة بسبب تمسكهم بعوائدهم وشماثرهم القديمة وحبهم لحريةهم واستقلالهم فكان جميع تلك القبائل المنشورة وهم رحل فى الوديان غيورون على اطلاقهم فى الفلوات لا يعرفون من الحكم الاسوق الماشية الى المرعى ومحاربة بعضهم فى كل آن وتكوين أمة واحدة منهم أكبر عتبة قامت فى وجه النبي ولولا قوة الدين الجديد لما بقيت تلك الوحدة زمنًا طويلًا على انها لم تدم الا وقتًا وعادت بمد ذلك الى التفرق والانقسام غير ان القبائل بمد تفرق وحدثها الا تزال متمسكة بدينها الجديد وصار الاسم العربى ذالمقام الاول بين الأسماء فى جميع أطراف المسكونة وصار كل ينتسب الى عائلة من عائلات الجزيرة خصوصًا عائلة قريش ذات المجد الباذخ والشرف الرفيع وهذا هو السبب فى اطلاق اسم العرب فى التاريخ على أمور كثيرة فقالوا عائلة كذا عربية وأمة كذا عربية وتمدن كذا عربى مع انه لا جامعة بينها وبين بلاد العرب سوى الاسلام

ولم تتوحد قبائل العرب لتصير أمة واحدة من غير اراقة الدماء بل قامت حروب داخلية اذكتها الاحقاد القديمة وجلبت على المتحاربين خسائر جلى وكان النبي ( صلى الله عليه وسلم ) مهتمًا كثيرًا بفتح العرب

كلها لظهوره بينهم وكون بلاد العرب صارت مطلع شمس الاسلام حيث ترسل اشعة نورها في جميع الاقطار وكان اشياعه يسمعونه على الدوام يكرر عليهم هذا النداء ( لا يكون دينان في العرب ابداً ) ولذلك نزلت في القبائل المعاندة تلك الآيات التي تنذر بغضب الله ( يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم وماؤاهم جهنم وبئس المصير ) ( يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا ان الله مع المتقين ذلك بانهم كرهوا ما أنزل الله فاحبط أعمالهم ) فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا تخنتتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ) وقد نظر بعضهم الى هذه الآيات وما يماثلها فاتهموا النبي بالتعصب أفما كان يجب عليه أن يحارب بقوة السلاح المعاندين من الوثنيين ليبيد تلك الديانة الى الابد من بلاد العرب كما انها هي التي اخنت على مذهب التوحيد مذهب الخليل قبل الاسلام وان يجعل بين المؤمنين وبين عبادة الاصنام حداً فلا يرجعوا اليها ( قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله )

ولقد فرق جميع مفسري القرآن على الدوام بين الوثنيين وبقية الكافرين فالحجوسى على قول خليل هو الوثني الذي لا يعترف المسلمون بديانته كما يعترفون بدين اليهود والنصارى وليس له مقام في دارهم وان أدى الجزية لانها غير مقبولة منه ويجب عليه أن يهاجر في ثلاثة أيام من يوم تكليفه بذلك أو ان يعتنق الاسلام أو ان يموت على اننا نرى في الكتاب الخامس من الزبور أمراً بالتشدد في معاملة الوثنيين قال ( اذا دخلك ربك في ارض

تملكها وقد أبادا مما كثيرة من قبلك فقاتلهم حتى تفنيهم عن آخرهم ولا تعطهم عهداً ولا تأخذنك عليهم شفقة أبداً). كذلك أمر الله إسرائيل باستئصال سكان المدائن التي اختص بها قومه ولم يأمر بالاشفاق الاعلى المدن البعيدة التي لا تصل عدواهم اليه ثم ان شدة اعتقاد النبي وقوة ايمانه بان القرآن أنزل اليه ليخرج الناس من الظلمات الى النور سببان يؤيدانه في استعمال الحرب فكان مثل اشعيا يخدم ربه بابادة الوثنيين كذلك اعتناق بعض القبائل للاسلام في مبدأ ظهوره كان اوجب عداوات شتى اشتعلت بسببها نيران الفتن في بلاد العرب اجمعها وما كان ينبغي للنبي حباً في السلام ان يترك الباطل يعلو على كلمة الحق المبين

كتب القديس اوغستان وعصره ليس ببعيد عنا كتابه الشهير الى الكونت (بونيفاس) يشير عليه فيه باستعمال القوة لردع اهل البدع من المسيحيين وردهم الى الديانة النصرانية (راجع ترجمة هذا الخطاب في الملحق الثاني) وقد جاء فيه تمثيل المذنبين بفعال تعض وترفس قوما يعالجونها مما اصابها وهم ملجئون الى تعذيبها ليتمكنوا من اضميد جراحها وان الطفل الصغير لا تتيسر تربيته بغير السياط والايلام الجسماني فالاضطهاد الذي يستعمل ضد الاشرار لردمهم الى طريق الخير أكبر خير يصنع معهم نعم لا يشك احد في ان حمل الناس على طاعة الله بالحسنى وبالتعليم اولى من الجأهم اليها بالارهاب والتعذيب الا ان الناس رجالان فمنهم من يسهل اقتناعه بالمناظرة فيرجع الى الحق ومنهم الغبي المكابر ولقد دلتنا التجارب والاتزال ترينا ان الناس من ينفع الخوف في تعليمهم او في استعمال ما تعلموه على الوجه

الذى ينبغي ثم أخذ الكاتب يشرح للمكشوب اليه ان الاضطهاد عدل وظلم فهو عدل من الاتقياء ضد الاشقياء، وظلم من هؤلاء على الاولين قال (تضطهد الكنيسة من تحب ويضطهد الاشرار من يكرهون فهي تريد جمع الشمل وهم يفرقون وهي تجرى خلف الهدى وهم للضلال يسارعون) ولقد كان يتعذر ان يلاقى الناس تساهلاً وليناً من الاسلام في مبدأ ظهوره لما فيه من المخالفة لثورة الدين في نفس النبي واصحابه الاولين ولكن بعد ان دانت العرب وآمنت بالقرآن واستنارت القلوب بنور الدين الحنيف برز المسلمون في ثوب جديد امام اهل الارض قاطبة هو المسالمة وحرية الافكار في المعاملات وتناوبت آيات القرآن تأمر بالمحاسبة بمدتك الآيات التي كانت تنذر القبائل المارقة (لا اكره في الدين قد تبين الرشد من الغي) (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرأ جميلاً) وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هوناً واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً

هكذا كانت تعامل النبي بعد اسلام العرب وقد اقتنى اثره فيها الخلفاء من بعده وذلك يحم لنا على القول كما قال (روبنسون) ان شيعة محمد هم وخدمهم الذين جمعوا بين المحاسنة ومحبة انتشار دينهم وهذه المحبة التي دفعت العرب في طريق الفتح وهو سبب لا حرج فيه فذشر القرآن جناحية خلف جيوشه المظفرة اذ اغاروا على الشام وساروا سير الصواعق الى افريقيا الشمالية من البحر الاحمر الى المحيط الاطلانطي ولم يتركوا أثراً للعسف في طريقهم الا ما كان لابد منه في كل حرب وقتال فلم يقتلوا امة ابت الاسلام ولو

قارنا بين اغارة المتبربرين وبين اغارة المسلمين التي تلتها لوجدنا الثانية اخف ضرراً واكثر ليناً فكلمنا التقى المسلمون باهة خيروها بين واحد من ثلاث الاسلام او الجزية او تحكيم الحرب حتى تضع اوزارها هكذا كانت الاوامر التي زود بها ابو بكر الصديق خالد بن الوليد لما انفذه الى الشام وقد سرت هذه الاوامر الا في الوثنيين لما تقدم بيانه من انهم كانوا يعاملون بغير معاملة الامم الاخرى ومما يحسن هنا ان تقابل بين اوامر ابى بكر (رضى الله عنه) وبين تعاليم الكتاب الخامس من الزبور فيما يتعلق بحصار المدائن ومعاملة الكلدانيين قال ( اذا اقتربت من مدينة لتحاصرها فاعرض عليها الامان فان قبلته فقد سلم كل من فيها وان ابى وبادأتك بالعدوان فشدد الحصار عليها ومتى وفقك الله للظفر بها فاحطم رأس كل ذكر فيها بحد الحسام )

ولم يلق المسلمون من نصارى آسيا وافريقيا الامقاومة خفيفة اخلدوا بعدها الى الدين الجديد ولقد مضى زمن طويل وهم ينسبون سقوط تلك الكنائس في حوزة الاسلام مع ما كان لها من المكانة الرفيعة قبله مثل كنائس ( قرطاجنة ) الى ما استعمله المسلمون معهم من العنف والتعصب وعدم المحاسنة وذهب معاصرو هذا الفتح من المؤلفين الى تفسيره بما يلائم احوال زمنهم فنسبوا سرعة تقدم الاسلام الى ما استحققه المسيحيون من غضب الله عليهم فاراد ان يعاقبهم على زيغهم واراد قوم من المتعبدین ان يؤيدوا هذه الحجة وان يخرضوا الناس على التوبة فبالغوا في ذلك الزيغ وشددوا التكبر على النصارى وصاروا يعززون بان الجيوش الاسلامية انما

هي الآلة التي اراد الله ان ينتقم منهم بواسطتها ذلك لان الفتح الاسلامي وتفرق الكنائس المسيحية في آسيا وافريقيا حادثان متلازمان فلا لوم على المؤرخين في الجمع بينهما حتى ان الفاتحين انفسهم ما كانوا يفرقون بين اعتناق الاسلام ولرضوخ للقوة الظاهرة ولكن الخطأ عند الجميع هو تعليقهم الثانية على الاولى مع انه لا يوجد بينهما الا تفاعل من بعض الوجوه فكما ان الفتح الاسلامي حمل النصارى على ترك دينهم كذلك تفرقت ذات بينهم سهل الفتح للمسلمين

انكر ( آريوس ) ألوهية عيسى فكان بذلك طليعة لنبي المسلمين اذ فتح الطريق الى الاسلام لان الاسلام ما كان يقول عن المسيح الا انه آخر الرسل قبل محمد ( صلى الله عليه وسلم ) وبعد ان ظهر لم يقم أحد بطعن يذكر ضد مذهب التثليث بل جرى الناس عليه بالاجماع اثني عشر قرناً متتالية حتى صار عاماً ولم يعد الباحثون غير المتدينين يجراؤن على نبذه من بين الديانات القائلة بالتوحيد لما يلزمه من تعدد ذات الاله ولذلك كان من خوارق العادات قيام أسقف الاسكندرية آريوس في وجه الدين المسيحي حتى ارتجت له اركان ذلك الدين واستولى اليأس على قلوب المسيحيين المخلصين وصار القديس ( جيروم ) يتنهد الصعداء قائلاً لقد اندهش الكون من صيرورة الناس كفاراً لا يعتقدون بتجسم الاب في الابن ) ومع ان المسيحيين اتباع ( نيس ) تمكنوا من التغلب على هذا المذهب الجديد فقد نتج من هذا الخلاف الشقاق عظيم في كنائس افريقيا وآسيا وظهر الاسلام بخطو خطاه الواسعة فلم ير فيه أولئك المتنافسون ديناً جديداً

بل قبلوه مذهباً مسيحياً

ولا انتشار الإسلام ورضوخ الأمم لسلطانه سبب آخر في هاتين القارتين آسيا وأفريقيا الشمالية هو استبداد القسطنطينية فانه كان قد بلغ منتهى السف ووصل جور الحكام الى درجة ازهقت النفوس فلما جاء الإسلام تراموا اليه هرباً من الضرائب الفادحة واستلاب الاموال لانه كلما اسلمت عشيرة رفع عنها أثقال المغارم ورد اليها مالها المسلوب ومن لم يقبل شريعة القرآن عومل هذه المعاملة عينها بلا قيد غير اداء الجزية وكانت شيئاً يسيراً (العشر) أو جزءاً من اثني عشر وبذلك آمنوا في ظل لدين الجديد ولم يتعرض اليهم أحد من دعائه في دينهم ولم يفرق بين أصلي في المسيحية ومنشق عنها وهذه المعاملة هي التي جاء بها القرآن وجرى عليها الخلفاء الاولون فكان اليهود والمسيحيون يسمون ذميين وهم ثلاثة ذميون ومستأمنون ومحاربون فالاول منهم من سكن بلاد المسلمين ودان لسلطة الحاكم الاسلامي وأدى الجزية اليه يعبد الله على دينه ولا يكره على الاسلام ويخضع لقوانين النظام والامن العام ويرجع الى دينه في الاحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث الا اذا اشترك معه مسلم فالدين الاسلامي ومن اخطأ الفاحش استعمال لفظة الذمي في معنى الخسة والجبانة لأن معناها الحقيقي (المؤمن بتشديد الميم الثانية وفتحها)

والمستأمن هو الغريب العابر السبيل وهو يعيش تحت حماية المعاهدات والقوانين الدولية العامة وأما المحارب فهو من كان في بلاد تجاهر بالعداوة للإسلام أو لم تتعاقد مع المسلمين على ما يضمن لاهلها الامان في ديارهم فان

وجد في بلد مسلم وشهر السلاح في وجهها خير بين الاسلام أو الاعداء وما عدا ذلك فهو آمن ان أدى الجزية قال على رضى الله عنه ( ما كانت الجزية الا ليتساوى دم الذمى بدم المسلم وماله بماله ) وكان من وراء هذه المسألة ولين المعاملة تقدم الاسلام حثيثاً وسهولة استعلاء، فأتحيه لما سبقه من ظلم أكلسرة المملكة الشرقية التي بغضها الناس وسثموا الحياة منها هذا واذا انتقلنا من الفتح الاول للاسلام الى استقرار حكومته استقراراً منظماً رأيناها أكثر محاسنة وانعم مامساً بين مسيحي الشرق على الاطلاق فما عارض العرب أبداً شعائر الدين المسيحي بل بقيت رومة نفسها حرة في المراسلات مع الاساقفة الذين مازالوا يرعون الأمة الخالية وفي سنة ١٠٥٣ ميلادية كتب الباباليون التاسع الى مسيحي افريقيا يوصيهم باعتبار أسقف ( قرطاجنة ) مطراناً عاماً بينهم وكان الوثام مستحكما بين المسلمين والمسيحيين حتى ان ( غريغوريوس ) السابع كتب الى المسيحيين يلومهم على المحاكمة مع أسقفهم امام المسلمين وكان ذلك في ٥ سبتمبر سنة ١٠٧٣ ومع هذه المسألة العظيمة من جانب المنتصر الى المغلوب ضعفت الديانة النصرانية جداً ثم زالت بالمرّة من شمال افريقيا . على ان الاسلام لم يكن له عمال مخصوصون يقومون بالدعوة اليه وتعليم مبادئه كما في الديانة المسيحية ولو انه كان له أناس قوامون لسهل علينا اشكال معرفة السبب في تقدمه القريب فانا شاهدنا الملك شارلمان يستصحب معه على الدوام في حروبه ركباً من القسس والرهبان لياشروا بفتح الضمائر والقلوب بمد أن يكون هو قد باشر بفتح المدن والاقاليم بجيوشه التي كان يصلي بها الامم حرباً تجعل

الولدان شيبا ولكننا لا نعلم الاسلام (مجمعا دينياً) ولا رسلا وأخبار أورآء الجيوش ولا رهينة بعد الفتح فلم يكره احد عليه بالسيف ولا باللسان بل دخل القلوب عن شوق واختيار وكان نتيجة ما أودع في القرآن من مواهب التأثير والاخذ بالالباب نعم قد اعتنق الاسلام قوم مشوا أورآء منافعهم ولكنهم قليلون بجانب من اسلم عن اعتقاد صادق وميل صحيح وكان ذلك من اسهل الامور لبساطة الدين وكفاية النطق بكلمة التوحيد ليصير قائلها من المسلمين . ومع ذلك فلم نر بعد استقرار الحكومة الاسلامية على محور النظام عشائر من المسيحيين تركوا دينهم جملة واحدة بل انه صار من اللازم ان يثبت الاسلام لمن اراده على يد القاضى ويحرق بذلك محضر يذكر فيه ان المسيحي اعتنق الاسلام عن اعتقاد تام غير خائف ولا مكره اذ لا يجوز ان يكره احد على تغيير دينة (راجع المحضر المذكور فى الملحق الثالث) <sup>(١)</sup>

وقد كثر دخول المسيحيين فى الدين الاسلامى ايام حكم الامويين حتى ان الخلفاء لم ينظروا اليه بعين الرضا لما كان ينشأ عنه من الضرر ببیت المال فقد نزلت ضرائب مصر مدة خلافة معاوية الى النصف عما كانت عليه فى خلافة عثمان بسبب دخول عدد عديد من الاقباط فى الاسلام ومن أجل ذلك ضيق الخلفاء باب الدخول فى الدين الجديد فلم يعفو الراغبين فيه من أداء الجزية يدلنا عليه ما كتبه حيان الى عمر الثانى وهو عمر بن عبد العزيز اتقى الخلفاء الامويين حيث قال له فى

(١) هذا ليس بواجب شرعا ولعل المؤلف اخذ ما يقول من سرعان العادة به

خطابه ( اذا دام الحال في مصر على ما هو فيه الآن أصبح مسيحيو هذه البلاد كلهم مسلمين وخسرت الخلافة حينئذ متجيبه منهم من الاموال ) فلما قرأ الخليفة هذا الكتاب انفذ لساعته الى حيان رسولا وقال له ( اذا لقيت حيانا فاضربه ثلاثين سوطاً على أم رأسه عقاباً له على كتابه وقل له ان يرفع الجزية عن كل رجل يمتنق الاسلام فاني ارى سعادتي في ان يصبح المسيحيون أجمعون من المسلمين لان الله ارسل نبيه ليبلغ رسالته لا ليجمع الضرائب والاموال ) وليس في خوف المسلمين على نقاد النقود من بيت المال ما يوجب استغرابنا لان الضرائب في الجزائر تصيب مسلميها فهي اكثر جداً من التي تطلب من المسيحيين فلو تنصر مسلمو الجزائر ومنحوا جميع الامتيازات المخولة للمسيحيين لاصبحنا في حيرة شديدة من قلة المال

ولقد زادت محاسنة المسلمين للمسيحيين في بلاد الاندلس حتى صاروا في حالة أهنأ من التي كانوا عليها أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين الذين يقال لهم ( فيزيجو ) ويقول ( دوزي ) ان هذا الفتح لم يكن مضرراً بالاندلس وما حصل من الاضطراب والهرج بعمده لم يلبث ان زال باستقرار الحكومة المطلقة الاسلامية في تلك البلاد وقد ابقى المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم وقلدوهم بعض الوظائف حتى كان منهم موظفون في خدمة الخلفاء وكثير منهم تولى قيادة الجيوش مثل ( سيد ) وتولد عن هذه السياسة الرحيمة انخياز عقلاء الأمة الاندلسية الى المسلمين وحصل بينهم زواج كثير وكم من اندلسي بقى على دينه ولكنه

اعجبه طلاوة التمدن العربي فتعلم اللغة وآدبها وصار القسس يأمونهم على ترك الحان الكنيسة والتعلق باشعار الظافرين وكانت حرية الاديان بالغة منهاها . لذلك لما اضطهدت اوروبا المسيويين لجأوا الى خلفاء الاندلس في ( قرطبة ) لكن لما دخل الملك ( كارلوس ) في سراقسطه مر جنوده بهدم جميع معابد اليهود ومساجد المسلمين ونحن نعلم ان المسيحيين ايام الحروب الصليبية ما دخلوا بلادا الا واعملوا السيف في يهودها ومسلميها وذلك يؤيد ان اليهود انما وجدوا مجيراً وملجأ في الاسلام فان كانت لهم باقية حتى الآن فالفضل فيها راجع لمحاسنة المسلمين ولين جانبهم لا الى ما يوجد بين الاثنين من الجامعة في الاصل والجنس واللغة والدين كما ادعاه ( افيديكور شايبكين )

ولا يطلب المسلمون من مسيحي الاندلس الا ما فرضود على غيرهم وهو الجزية ويحسن بي ان اذكر هنا نادرة رواها أحد مؤرخي العرب لكونها تدلنا على آرائهم في الجزية وما كان بين المسلمين والنصارى من الملائق والروابط ( كان لفقير من فقهاء قرطبة جار مسيحي يسلم عليه كلما لاقاه في طريقه بقوله اطال الله عمرك فسمعه ذات يوم بعض المتشددين في التمسك باقرآن ولا موه على دعائه لجاره النصراني بمثل هذا الدعاء فلم يحفل الفقيه بلامهم واجابهم بسكينة اني بقولي الى نصراني اطال الله بقاءك اريد ان يفسح له في الاجل ليؤدي الجزية زمنا طويلا والظاهر ان الفقيه كان مصافيا للمسيحي وانه اراد التخلص من عتب الاثمين فاسكتهم بهذا الجواب . وقصص العرب والاندلسيين محشوة بمثل هذه النادرة مما

يدل علي حصول المودة الا كيدة بين الفريقين . فما هو مبالغ فيه اذن  
تعظيم الضعيفة التي كانت بين الامتين اما رأينا الخلفاء انفسهم في الشام  
والاندلس يتخذون لهم نصحاء من المسيحيين ويرفعونهم الى اعلي الدرجات  
وكان المسلمون يشكون من ذلك علنا ويرددون هذه الحكمة البديهيّة التي  
نزلت علي النبي ( صلى الله عليه وسلم ) يا ايها الذين امنوا لاتتخذوا اليهود  
والنصارى اولياء بعضهم اولياء بعض ومن يتولهم منهم فانه منهم ان الله  
لا يهدي القوم الظالمين )

وذهب العلماء الى تحريم مصافاة المسيحيين (١) وقالوا بعدم جواز  
ولايتهم في المناصب الا ان اوامر الدين لاتقوى على الضرورة فتولى  
المسيحيين مناصب في الاسلام كان ضربة لازب عقب الفتح لعدم تعود  
العرب على سياسة الامم فكانت ادارة ممالكهم من اصعب الامور لديهم  
ووجب لذلك استخدام المسيحيين لا ان اوائك الموظفين كانوا يشوهون  
بوجودهم في المناصب وحدة الاسلام وقد سماهم المحدثون من العرب ( قذى  
حقيقياً في أعين الاسلام ) وكان بغض المسلمين اليهم سبباً في الغالب من  
جورهم في الاحكام لامن مخالفتهم في الدين

وايس من غرضي ان آتى علي تاريخ المسيحيين في الممالك الاسلامية  
ايام القرون الوسطى ولكن من البديهي انه لا بد من ان يكون حصل بين  
الفريقين تعدد واعتساف كما يحصل المد والجزر في البحر الا ان رأى المؤرخ

( ١ ) الآية لا تدل الاعلى منع الولاية وليس في الشريعة ما يحرم المصافاة كما سبق

لأبائيه من جمع الحوادث مجردة عن ظروفها بل من نظره في أسباب تلك الحوادث والوقوف على كيفية ظهورها وأنا قد قرأت التاريخ وكان رأيي بعد ذلك ان معاملة المسلمين للمسيحيين تدل على ترفع في المعاشرة عن الغلظة وعلى حسن مسايرة ولطف مجاملة وهو احساس لم يشاهد في غير المسلمين اذ ذاك خصوصاً وان الشفقة والحنان كانا عنوان الضعف عند الاوروبيين وهذه حقيقة لا أرى وجها للطعن فيها على وجه العموم . على انه لا يسعني ان أترك ذكر حادث عظيم الشأن ذلك ان الكنيسة الاندلسية تخيلت سنة ١٥١٨ انها على شفا جرف الاضطهاد من المسلمين فينما عامة المسيحيين في قرطبة يقيمون شعائر دينهم مطمئنين ولا يشكون من حكومة العرب كان القليل منهم يتميز من الغيظ ضدّهم بما هيجه القسس والرهبان في صدورهم من الغل وما ملأ أواه ضمائرهم من الحق والبعضاء وقد امتاز من بينهم (ايلوغوا) وكان قساً في قرطبة في عنفوان شببته حتى انه احتاج في كسر ثورة نفسه الى قهرها بالصوم والسهر ووهب نفسه للموت حباً في المسيح فانساه هذا الميل كل شهوة دنيوية وكان يجتمع دائماً بمبغضى الاسلام ويخطب فيهم حتى أهاج ضمائرهم لقوة بيانه وهاموا جميعاً يطلبون الموت فداء لدينهم الاندلسي حاد التخيل سهل الاعتقاد بالاوهام وبينما القاضى في مجلسه بمدينة قرطبة اذ دخل عليه راهب يقال له اسحاق وكان كاتباً لاحد أمراء العرب وعلى وجهه سمات التهيج الذهني وعيناه حائرتان فلما صار بين يديه قال حضرت لاعتنق الاسلام فامر القاضى أن ينطق بالشهادتين فاندفع بسب النبي والدين سباً شنيعاً فظنه القاضى سكران أو مختل الشعور وتردد

في الحكم باعدامه الا ان اسحاق لم يرجع من أول مرة بل استمر على شتائه حتى اضطر القاضي أن يحكم عليه بالموت على ما به من الحلم طوعا لاشارة الشرع اذ يقضى بالاعدام علي من يسب الرسول وأعداء اسحاق في ٥ يونيه سنة ٨٥١ وهو يترف بالمسيح ويسب محمداً ومن ذلك الحين انفتح الباب أمام كل شخص يظن نفسه معذبا وأراد كل واحد أن يذهب الى المحكمة ليسب محمداً ويموت فتقاطروا اليها أفواجا أفواجا حتى تعب الحجاب من ردهم وكان القاضي يصم الاذن كي لا يحكم عليهم بالاعدام وعقلاء المسلمين مشفقون على هؤلاء المساكين آسفون على ان دينهم يأمرهم باعدامهم وبظنونهم من المجانين وقد بلغ عدد الذين حكم عليهم بالقتل أحد عشر في شهرين واتخذ ( ايلوغو ) ذلك دليلا على انتصاره لانه هو الذي أوجد خيال الاضطهاد في الاذهان واستحق بذلك ان يتخذ ذكره في الكنائس ومع هذا كان عقلاء المسيحيين يرون أولئك المتعصبين قوماً أرادوا الانتحار ويجاهرون بالتنديد على أعمالهم وكان ( ايلوغو ) وصاحبه ( القارو ) يرونهم بالخيانة لعدم اقدمهم على سب النبي ودينه ثم عظم الهياج في كنائس الاندلس واستولى القلق على حاشية الخليفة فامر الامير عبد الرحمن الثاني بجمع رؤساء القسس وطلب منهم الفتوى فيما هو حاصل من المسيحيين فلم يتعرضوا للماضي وقالوا بالمنع في المستقبل وتقرر أن لا يحضر مسيحي امام القاضي الا اذا دعي اليه فانقادوا آسفين ولكن ثورة الخواطر استمرت في الكنائس الى سنة ٨٥٩ وانتهى هذا الدور الذي سماه ( ايلوغو ) زمن الاضطهاد في قرطبة وتبعه في ذلك غيره من المؤرخين ومن تخلى عن الاغراض لا يرى في ذلك الا ان

قوماً خاطرُوا بانفسهم فذهبت ضحية الاوهام ولكنه لم يحصل من المسلمين اضطهاد مطلقاً. ودليلنا على ذلك كتاب ( ايلوغو ) نفسه وكتب من جاء من بعده فانها كلها تنطق بان المسلمين لم يبدأوا بالشر بل ثورة المسيحيين وتعميدهم هما اللذان كانا السبب فيما أصابهم ومن أراد ان يطالع تلك الكتب جزأؤد من تالوتها ان يقف على حكاية حدى العذارى التي كانت تسمى ( فلورا ) ولدت فلورا من زوجين مختلفين ديناً وجنساً وتيمت صغيرة فربتها أمها على الدين المسيحى وكان لها أخ شديد الاسلام فشقها الى القاضى وعذرت تعذيراً شديداً بالسياط حتى تقطعت بشرة رأسها من الخلف وكانت ذات حسن وجمال ( باهرين ) كان أبوها كانا من جنسين عظيمين واتفق ان جراحها زادت فى حسنها واهتم بها اشيعاع ( ايلوغو ) وصاروا يذهبون لمشاهدتها فى المحكمة ويعجبون بشجاعتها فى تمسكها بدينها وقد ذهب « ايلوغو » نفسه لزيارتها فكشفت له عن جراح رأسها وشاهدها بغير تلك الشمور التي كانت تزينا فتأثر التقى الصالح ( ايلوغو ) المرآها واشتغل قلبه بحبها غير انه حب طاهر كما كانت البنت بكرأ ثم وضع يده على الجروح وود لو تمكن من شفاؤها بين شفثيه ولكنه لم يتمكن فانصرف عنها مكتئباً فكوراً وكانت فلورا تعيش فى عزلة عن نظر المسلمين ولا تخرج من مخبئها الا الى الكنيسة وهناك تعرفت باحدى العذارى واسمها مريم وكان لها أخ حكم عليه بالموت وهى تريد أن تفعل كما فعلت وكانت هذه المعرفة سبباً فى ان كل واحدة منهما اهاجت ضمير اختها حتى وصلتا الى درجة احبنا فيها الموت فذهبتا مسرورتين الى المحكمة لتشتما محمدأمام

القاضي الا ان القاضي أشفق عليهما اشبا بهما وجماهما واجعل اعدامهما ثم أمر لها بالسجن . وما كان الثبات من اصعب الفضائل احتمالاً سيما على الطباع الشديدة التأثر ومضى على البنيتين شهر طوال وهما في السجن تهددان بالفحش والفجور ضعفت منهما العزم بعد أن طلبتا الموت بقلب ثابت ولكن ( ايلوغو ) ما كان لينسى تلك التي القت في قلبه شعوراً يقرب من العشق والهيام يوم ان كشفت له عن رأسها وانفق انه سجن أيضاً لمخالفته ماقررة القسس لدى الخليفة فسهل عليه ان يراها وكان لذلك أثر شديد في قلبه لكن الدين كان له جماحاً شديداً وأخذ يشجع البنت على الثبات والتعلق باهداب المسيح حتى أعدها ثانية الى تحمل الآلام . الا ان قلبه مع ما هو عليه من التأثر بالدين كان يشعر بامر دنيوى واحساس غريب ذلك ان ( ايلوغو ) كان يحزن كثيراً لمفارقة فلورا ولكنه ضاعف في حرمان نفسه بالصوم والجوع واراد الله ان لا يطيل عليه هذا العذاب ونفذ الموت في البنيتين يوم ٢٤ نوفمبر سنة ٨٥٣ واطلق من بعدهما صراح ( ايلوغو ) فبعين قساً في ( توليد ) ومات مقضياً عليه في ١١ مارث سنة ٨٥٩

ولم تنته هذه الثورة من اسبانيا الا في آخر القرن التاسع ومع ذلك حصلت ثورة دينية تشابه ماتقدم بعد ثلاثة اجيال في ( شبيليا ) ذلك ان القديس ( فرانسوى داسيز ) كان ارسل بعض اخوة من أشياعه لنشر الدين المسيحي في بلاد المغرب وكان أول عمل أتاه اولئك المرسلون ان دخلوا جامعاً في اشبيليا والمسجونون يصطلون وجعلوا ينشرون الانجيل ويعظون الناس بالدين المسيحي فطردوا ولكنهم ذهبوا الى سراى الملك وجعلوا

يطعنون على القرآن فحكم عليهم بالسجن في منارة فاستعلوها وصاروا  
يدعون الناس الى عبادة الدين المسيحي فلم ير السلطان بدأ من نفيهم فارسلهم  
الى مراکش فلم يزد هم ذلك الا تشدداً فيما كانوا يفعلون ولم تنفع فيهم شفاعة  
دون بيترو مع علو مكانته عند الامير المرراكشي فقتلوا في ١٦ يناير سنة ١٢٢٠  
ولقد اطلنا القول في مسالة المسلمين عند انتشار دينهم في الغرب  
لان الضد ثابت في أذهان المسيحيين ولا يزال مستحكماً من نفوسهم الى  
يومنا هذا ما نظره المؤرخون ومن طافوا بلاد الشرق من مخالفته للواقع  
قال ميشو في تاريخ الحروب الصليبية لما استولى عمر على مدينة اورشليم لم  
يفعل بالمسيحيين ضرراً مطلقاً ولكن لما استولى المسيحيون على تلك المدينة  
قتلوا المسلمين ولم يشفقوا واحرقوا اليهود حرقاً وقال الخبر ميشون (مما يؤسف  
عليه جداً بالنسبة الى المسيحيين ان تأنيبهم المسالة وحسن المعاملة من المسلمين  
مع ان المسالة هي أكبر الخيرات بين بعض الامم وبعضها) وقد انتشر الاسلام  
شرقي بلاد العرب في جميع القارة الآسيوية بين القرن الثاني عشر والرابع عشر  
ولم ينشأ عنه عسف ولا حروب حتى ان حكام المسلمين انفسهم احترموا  
مدينة (بيناريس) لاعتبارها عند الهندين مدينة مقدسة مع ان اهلها كانوا  
من البراهمة تقريباً. وبالجملة فان الاسلام ما دخل بلداً الا وصار ذا المقام  
الاول بين الديانات المسيحية من غير ان يتعرض لحوها

وعلى هذا يتحقق ان الدين الاسلامي لم ينتشر بالعنف والقوة بل  
الاقرب للصواب ان يقال ان كثرة مسالة المسلمين ولين جانبهم كانا  
سبباً في سقوط المملكة العربية ولقد يجب المؤرخون من سرعة انتشار

الاسلام حتى بلغ نهر ( اللوار ) في فرنسا ويتساءلون ما الذي كان يصير اليه حال أوروبا اذا لم يقف ( كارلوس مارتل ) في وجه المسلمين في سهول ( يواتيه ) ونحن نرى ان هذا السؤال موضوع وضماً مطلوباً والاولى ان يقال ماذا كان يصير اليه حال أوروبا المسيحية لو كان المسلمون متمصبين لان انكسارهم في يواتيه ليس سبباً كبيراً يكفي لان يعوق الاسلام عن الانتشار كما اصاب في الاشارة اليه موسيو ( مرسييه ) وخسارة مرة في الحرب لا تنتج عادة مثل هذه النتيجة الكبرى فمادة الحرب ان تكون سجالاتكم من كسرة شفعت بنصر عظيم وقد عال موسيو ( مرسييه ) انسحاب العرب نهائياً من أوروبا بعد تلك الحرب بالثورة التي قامت بين سكان المغرب لانها منعت عن المسلمين المدد الذي كان يأتيهم من تلك الاقطار وكانت العمدة في حروبهم على عساكرها وهو سبب قوي في الواقع لكننا لا ننسى ان نضيف اليه تطرف المسلمين في المحاسنة فانه سهل العصيان ومهد لبعض عائلات المغرب المستقلة طريق الخروج عن الجامعة في بلاد الاندلس وبلاد المغرب وانتهى الامر مع تلك المحاسنة الى انحلال عناصر المملكة العربية ومن المظنون ان المسلمين لو عاملوا الاندلسيين مثل ما فعل المسيحيون بالامم الساكسونية و( الوانديه ) لاخلدت الى الاسلام واستقرت عليه لانها مع تمتعها بحريه دينها المسيحي كانت كثيرة الانشقاق والاحزاب

ومالنا ولهذه الظنون والتخمينات وأمامنا أمر واحد ينبغي الوقوف عنده وهو ان ديانة النيران تمكنت من قلوب جميع الامم اليهوديه والمسيحية

٤ - الاسلام

والوثنية في افريقيا الشماليه وفي قسم عظيم من اسيا حتى انه وجد في بلاد  
الاندلس من المسيحيين المتتورين من تركوا دينهم حبا في الاسلام كل  
هذا بغير اكراه الا ما كان من لوازم الحروب وسيادة حكومة الفاتحين  
ومن دون ان يكون للاسلام دعاة وقوام مخصوصون وهو مما يقنعنا بان  
في الاسلام جاذبية وقوة انتشار سبغت فيما بعد عن سببها الحقيقي لانه  
لا يزال ينتشر حتى الآن . وقبل ان نبحث عن تلك الاسباب نذبه القارئ  
الى ان لا يعد من جعلتها كما ذهب البعض اليه ان الدين الاسلامي ينتشر  
لكونه ديناً مادياً اكثر مما هو دين أدبي فهو يبيح تعدد الزوجات ويبشر  
أصحابه بالتنعم في اللذائذ الشهوية في جنات بالغ الوصف في نعوتها . وهذا هو  
الذي اتخذته أعداء هذا الدين مطعنا عليه زمناطويلا كذلك سنأتي بشيء في القضاء  
والقدر لان منهم من رآه سبباً مهما لانتشار الاسلام وعلة الشجاعة التي امتاز بها  
المسلم فجعلته لا يعبأ بالموت في مواقف الحروب

